الأهرام

المصدر: الخليج
التاريخ: ٢٢ فبراير ٢٠٠٥

الحريري يتوّج وحدة اللبنانيين

بيروت - «الخليج» - ديانا فرحات:

كان الوقت مساء، وسط بيروت، والطرقات مزدحمة بالسيارات والمارة، لكن قلة كانت تتجه نحو الأسواق التجارية والمقاهي والملاهي، رمز السياحة في العاصمة، بل بدت المنطقة شبه خالية، لأن الغالبية كانت تكمل الطريق باتجاه ساحة البرج إلى المكان الذي لا يزال يحمل بصمات جريمة اغتيال رفيق الحريري. فاللبنانيون ربما يزيدون أن يملأوا أعينهم من المكان الذي كان مسرحاً لجريمة بشعة، كأنهم يريدون أن يحتفظوا بصورة مروعة، حتى لا ينسوا كيف قضى الراحل، وحتى لا يسقط من راحوا ضحية «الرعب» طي النسيان.

ساحة الشهداء مساءً لم تعد ساحة خاوية إلا من مجرد تمثال يؤنس وحدتها في ليالي الشتاء الطويلة. أربعة أجساد ممزقة بنيران الحرب اللبنانية، وشعلة لم تعد تقوى على الصمود، واليد التي تمسكها بدت هزيلة، مجردة من كل قوة أو قدرة على مواجهة العواصف بعزم. للمرة الأولى منذ أن أعيد تمثال الشهداء إلى مكانه بعد انتهاء الحرب، يبدو خائر القوى. مستضعفاً مهملاً وقد حجب الحدث المؤلم الكبير الأضواء عنه، عندما حوّل اغتيال رفيق الحريري إلى «رمز وعبرة» لكل اللبنانيين. رمز للوحدة الوطنية التي تجلت بأبهى ملامحها، وعبرة لكل مَن يحاول النيل من تماسك اللبنانيين ودفعهم باتجاه ارتكاب خطيئة مميتة ثانية، باتجاه حرب أهلية مدمرة.

السادسة مساءً. مئذنة جامع محمد الأمين لم تتوقف منذ لحظة إعلان اغتيال رئيس الحكومة السابق عن تلاوة آيات من الذكر الحكيم. هي مستمرة في مهمتها المقدسة إلى أن ترقد روح الشهيد وأرواح مرافقيه السبعة بسلام. وهل سينام الوطن بسلام قبل جلاء الحقائق ومعاقبة الفاعل؟ أو الفاعلين؟ ونفترض أنهم كُثر نظراً للتخطيط المتقن الذي تطلّبه إعداد خطة لاغتيال شخصية بحجم رفيق الحريري.

الكنائس، وهي كثيرة في تلك المنطقة الجغرافية الصغيرة نسبياً كما الجوامع، لم تتوقف بدورها عن استقبال المؤمنين. يفدون إليها لإضاءة شمعة عن روح الراحل. ويتضرعون إلى الله ليجنب لبنان المزيد من الويلات. ثم يتابعون سيرهم نحو مسجد محمد الأمين. المكان الذي يضم بين ترابه الطاهر جثمان الحريري ومرافقيه السبعة.

على مقربة من الضريح رُفعت عبارة «كلنا محمد، كلنا طوني، كلنا علي، وكلنا لبنان». هنا كل شيء يبدو مختلفاً. وكل ما يُثار في أروقة السياسية عن مخاوف وشكوك من اشتعال نيران الحرب الأهلية، لا يجد ما يبرره. هنا المعادلة التي فرضها المواطنون بتوحدهم حول هول الفاجعة، يبعث نوعاً من الاطمئنان في النفوس.

يحار شيخ خمسيني يبدو من خلال طريقة لباسه أنه ينتمي إلى الطائفة السنية، اي الاتجاهات يسلك للدخول إلى باحة الجامع، وإلقاء نظرة على الضريح. يتنبه إلى وجود ممر للدخول وآخر للخروج. وقبل أن يسير قُدماً باتجاه الهدف، تحين به التفاتة للخلف. فإذا بثلاث راهبات تراقبنه بحذر. يتوقف الشيخ ويمد بيده أمامه داعياً الراهبات للتقدم قبله. يفعلن ذلك بامتنان واضح. ويسير خلفهن إلى أن وصلوا جميعاً بمحاذاة الضريح. وقد تحول إلى ما يشبه «حديقة من الورد الأبيض والأحمر». رسمت الراهبات علامة الصليب على وجوههن، وبادر الشيخ لقراءة الفاتحة عن روحه، ثم تقدم كل منهم لإضاءة شمعة عن روح الفقيد. وكان من نصيب الشيخ أن وقعت يده على شمعة تحمل صورة أحد القديسين المسيحيين. فأضاءها وتلا بصمت بضع آيات، ثم رفع كفيه الى وجهه، ونطق آمين.

وكذلك فعلت امرأة متشحة بالسواد اصطحبت ولديها الصغيرين وقد عصبا رأسيهما بقماشة خُط عليها باللون الأحمر كلمة «عاشوراء»، فيما بدا الزوج في الخلف وقد حمل بيده صورة الحريري. عائلة لبنانية صغيرة أخرى تقدم واجب العزاء. عائلة شيعية يبدو أنها ما إن انتهت من المشاركة في إحياء مراسيم عاشوراء حتى توجهت لزيارة ضريح الراحل.

هم مسلمون ومسيحيون وعلى الأرجح من مختلف المذاهب التقوا عند الضريح ليوحدوا الصف في مواجهة محنة تهدد بقلب الطاولة على الجميع في ظل تبادل الاتهامات والتراشق السياسي المتواصل بين السلطة اللبنانية والمعارضة. فحالة البلد في غليان. والمعارضة تواصل جهودها اليومية لتحقيق هدفها بفضح تجاوزات السلطة وفك الارتباط اللبناني بالسياسة السورية.

www.ethraadl.com
إثراء المعارف الرقمية

الأهرام

والاطمئنان الذي أوحت به أجواء الوحدة، قطعه ما يُردد في الكواليس عن احتمال تعرض بعض السياسيين المعارضين لمحاولات اغتيال جديدة نتيجة ما اتبعته المعارضة من لهجة كلام تصعيدية ضد الحكومة اللبنانية والدولة السورية. وهو ما بدا واضحاً على العرائض الكبيرة التي أطلقها مجموعة من المواطنين بشكل عفوي للتنديد بحادثة اغتيال الرئيس الراحل. فإذا بهذه العرائض، وهي عبارة عن عدد من قطع قماش كبيرة، تتحول إلى عرائض احتجاج ضد الدولة اللبنانية والتدخل السوري في لبنان.

أما على الرصيف العشبي الذي يضم قاعدة تمثال الشهداء، فقد خطّ بعض المواطنين بالحجارة عبارة «ألف لا لسوريا»، واكتفى عدد من السواح الأجانب بالجلوس هناك والتقاط صور تذكارية لبعضهم على مقربة من العبارة. أتوا من ناحية ساحة البلد، علّهم يجدون هنا ما يبرر خواء تلك الساحة من المتنزهين ورواد المقاهي. خاصةً في مثل هذا المساء. مساء الأحد من كل أسبوع، عنوان سمر وسهر لا ينتهي إلا مع بزوغ أولى خيوط شمس الضحى.

وشمس «سوليدير» تحول إلى غمام حزين. بعد مرور ستة أيام على وقوع الحادث المؤلم، لم تستعد تلك الساحة عافيتها بعد. أو لعلها تكاد تفعل ذلك ولكن بحذر شديد. فأجواء الارتباك والقلق ظلت تسيطر على المكان على الرغم من انتهاء أيام الحداد الرسمية الثلاثة. والمقاهي على الرغم من أنها لم تفتقر تماماً إلى الرواد وغالبيتهم من الجنسيات الأجنبية، غير أنها لم تطلق العنان لأصوات المغنين والمغنيات يصدحون بين جدران الأمكنة الثكلى لتلوين لياليها بألف لون ولون.

وحده صوت تلاوة القرآن تناهى إلى المسامع من جامع مسجد الأمين. المكان الذي اجتذب المواطنين وخطف الأضواء من ساحة البلد، بعدما تحول إلى معلم وطني فضلاً عن كونه معلماً دينياً.

www.ethraadl.com
إثراء المعارف الرقمية